

المحاضرة الأولى: مدخل عام للمقياس.

1. مفهوم مقياس الحركات المذهبية:

فرع من فروع التاريخ الإسلامي يهتم بدراسة الفرق والحركات المذهبية الإسلامية من حيث تاريخ نشأتها وأبرز أعلامها وعوامل انتشارها أو تراجعها، وهذا المقياس كذلك من فروع علم العقائد والأديان باعتباره يدرس عقائد الفرق والمذاهب من حيث أصولها وأدلتها وحججها.

2. المصادر الأساسية للمقياس:

حظي هذا العلم بالعناية والاهتمام والتصنيف قديماً وحديثاً، حيث بدأ التدوين في هذا العلم مبكراً منذ منتصف القرن الثاني للهجري، فنجد كتاباً بعنوان: "المقالات" لزفر بن الهذيل الحنفي (158هـ)، واستمر التصنيف إلى مطلع القرن الرابع للهجري فنجد مصنفات الإمام أبو الحسن الأشعري (324هـ) ثلاث مصنفات في هذا المجال هي: "جمال المقالات"، وكتاب "مقالات الإسلاميين"، وكتاب "مقالات غير الإسلاميين"، ولكن أشهر المصنفات في هذا المجال شهدها مطلع القرن الموالي - القرن الخامس الهجري - حيث ظهرت أكبر الموسوعات في هذا العالم، وهي موسوعة "الملل والنحل" لأبي بكر الباقلاني (403هـ)، وموسوعة أخرى بنفس الاسم هي "الملل والنحل" لأبي المنصور عبد القاهر البغدادي (429هـ)، وله كتاب تحت اسم "الفرق بين الفرق"، وفي منتصف القرن السادس للهجري تجدد التصنيف في هذا الفن بموسوعتين أخريين، إحداهما بالمغرب الإسلامي والأخرى بالمشرق الإسلامي، هما موسوعة: "الفصل في الملل والأهواء والنحل" لابن حزم الأندلسي (456هـ)، وموسوعة "الملل والنحل" لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني (548هـ).

3. الفوائد الجمة لدراسة مقياس الحركات المذهبية:

تعالى في الآونة الأخيرة أصوات تتساءل في حيرة عن جدوى هذا العلم في الزمن الراهن؟ وأصوات أخرى تدعوا إلى تجاهله بدعوى أنه يثير النزاعات؟ فما هي التجليات والفوائد التي يمكن أن يمنحها لنا دراسة هذا المقياس.

1- القرآن الكريم وتفاصيل الفرق والأديان:

تجلت في صفحات القرآن الكريم آيات بينات حول الفرق والأديان السالفة في سياق تاريخي، فقد أخبر الله عز وجل عن مقالات اليهود فقال تعالى: "وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا" (المائدة 64) "وقالت اليهود عزيز ابن الله" (التوبة 30)، كما أورد القرآن الكريم مقالات النصارى فقال تعالى: "وقالت النصارى المسيح ابن الله"

(سورة التوبة 30)، كما أخبر الله تعالى عن منكري البعث والنشور فقال عز وجل "وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم" (ياسين 78-79)، وقال تعالى: "وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر" (الجاثية 24)، كما أورد القرآن الكريم أيضا مقالات منكري وجود الله تعالى: "ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتى بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين" (سورة البقرة 258).

2- السنة النبوية والفرق:

وفي صحيح الأحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم نجد نماذج من الرصد التاريخي للرؤى الدينية والمذهبية السالفة، فعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس وهو يقول: "وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك"، كما نجد أحاديث تنبئ عن حالة التفرق وتحذر منه، فعن عبد الله بن مسعود قال: "خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما خطا، ثم قال: هذا سبيل الله، ثم خط خطوطا عن يمينه وخطوطا عن يساره ثم قال: هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها"، ثم قرأ قوله تعالى: "وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون" (الأنعام 153).

3- تعليم الناس قيمة الثبات على الحق:

فعندما توج الأفكار الهدامة والمعتقدات الباطلة يعلم دراسة هذا المقياس وسرد أخبار التفرق المذهبي تعليم الناس الثبات على الحق، وعلاج مرض التفرق والتشتت في حد ذاته.

4- التبصر بالداء الذي يأتي على المجتمعات فيمزقها وعلى الحضارات فيهدمها، فمعرفة الشر ليس شرا بالضرورة، فالبحث في ظاهرة الافتراق والتشتت هو تماما كالبحث في الأوبئة والأمراض في المجال الطبي، أو البحث في ظواهر الزندقة والشعبوية في المجال الاجتماعي، أو البحث في الوسواس والاكتئاب في المجال النفسي، وفي هذا قول الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان رضي الله عنه "كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني".

5- السعي إلى توحيد الأمة ولم شتاتها، فتبصير الأمة بمكامن التفرقة يسهل عليها تجاوزها، لأن إحصاء ورصد مواطن الخلاف ومواطن الاتفاق يجعل الرؤية أكثر وضوحا، فتجتمع الأمة فيما اتفقت عليه، ويعذر بعضها بعضا فيما اختلفت فيه.

6- الإحاطة بتاريخ الأفكار، فما من فكرة إلا ولها جذور، لأن الأفكار تتطور ولا تموت بل تتغير مسمياتها وأساليبها وأولوياتها فقط، ثم تتطور وتكتسي أسماء وألقابا وشعارات، فقد أخرج الجهمية التعطيل في قالب التنزيه، وأخرج الروافض الإلحاد والكفر والقدح في الصحابة في قالب محبة أهل البيت والتعصب لهم وموالاتهم وغيرهم، فكل صاحب باطل لا يتمكن من ترويج باطله إلا بإخراجه في قالب حق.

7- الكشف عن الأفكار الدسيسة والمساعدة على كشفها والتصدي لها، فالفكر الداعشي مثلا فكر دخيل مندرس منسوب ومحسوب علينا وعلى ديننا، يستقي أفكاره من نفس المعين الذي ارتوى منه الخوارج المارقون في التاريخ.

8- التحلي بأسلوب مجابهة الأفكار المنحرفة والمتطرفة، وهو أسلوب مجابهة الفكرة بفكرة مثلها، فقد أثبتت استراتيجية الدفاع المعاصرة أن الفكرة لا يمكن القضاء عليها إلا عن طريق تطويق الفكرة ومحاربتها بفكرة أخرى.

9- اكتساب شخصية المظاهر والمناصر لما هو حق، والدر على ما هو باطل، ليس تشفيا وإنما هو النصيح وبغية الخير للغير وهو الجهاد الأكبر.

10- معرفة العوامل التي تؤدي إلى انتشار الأفكار والمذاهب وعلاقة ذلك بالسلطة السياسية، فالتتبع التاريخي يقضي إلى تباين شديد بين مذاهب انتشرت دون أخرى وفي مناطق معينة دون أخرى، ومذاهب بقيت وازدهرت وأخرى ففيت واندثرت، وبعض المذاهب استطاع الظفر بتأييد السلطة ومذاهب أخرى لقيت من التكيل ما لقيت، ولنا أن نتساءل أيضا لماذا انتشر المذهب المالكي مثلا في الغرب الإسلامي بينما انتشر مذهب الحنابلة في منطقة الحجاز في حين انتشر مذهب الشيعة في إقليم فارس وغيرها.

4. نشأة الحركات المذهبية الإسلامية:

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "لتتبعن سنن من كان من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع، ولو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قيل: اليهود والنصارى يا رسول الله؟ قال: فمن؟".

جاء في حديث العرياض بن سارية، قال: "صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأن هذا موعظة مودع فماذا تعهد

إلينا؟ فقال: "أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن كان عبدا حبشيا، فإنه من يمشي بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة".

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "افتترقت اليهود على إحدى أو اثنين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى أو اثنين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاثة وسبعين فرقة"، وزاد في رواية أخرى "اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة".

بقي المسلمون في عهد الخليفين أبو بكر وعمر متمسكين بالعقيدة الصحيحة، وعلى الرغم من المحاولات الأولى في عهد أبي بكر الافتراق بعد أن رفض البعض دفع الزكاة، إلا أن الخليفة أدبهم وأرجعهم إلى جادة الصواب فخفت بهذا صوته، وفي عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي كان شديدا في مسألة كل من يريد إثارة القضايا المتشابهة، فكان يؤدب أو ينفي كل من يسعى إلى ذلك.

وقد بدأت هذه الحركات تظهر في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وبالخصوص في أواخر خلافته والذي أدى إلى مقتله رضي الله عنه، وكان من نتاج ذلك اقتتال المسلمين وظهور الفرق والمبتدعة، فظهرت أول بدعة في الإسلام على عهد علي رضي الله عنه وهي بدعة الخوارج، الذين أرادوا التكفير بالذنوب والخروج على الإمام وقتاله، وكانوا بالتالي أول الفرق الإسلامية.

ثم ظهرت فرقة الشيعة وعلى الرغم من أن البعض يرد نشأة التشيع إلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولكن هذا الكلام فيه تعصب كبير، على الرغم من وجود بعض الصحابة كان يرون في علي أحق بالخلافة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم من أمثال سلمان الفارسي والمقداد وأبي ذر رضي الله عنهم، فالشيعة ظهرت على اليهودي عبد الله بن سبأ والذي جعل من علي إله يعبد، ثم ما لبث الخوارج والشيعة حتى تفرقوا إلى فرق كثيرة بين غالية ومعتدلة واحتدم الصراع بينهما. وفي أواخر عهد الصحابة حدثت بدعة القدرية والمرجئة، فأنكر ذلك الصحابة كعبد الله بن عمر وعبد الله بن العباس وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم، ثم حدثت بعد ذلك غي أواخر عهد التابعين بدعة الجهمية منكرا الصفات، وفي أثناء ذلك حدثت بدعة الاعتزال بكل ما تحمله من انحراف عن منهج السلف ورد لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم ما لبثت هذه البدع أن انتشرت وعمت الآفاق وقويت شوكة المبتدعة حتى صارت لهم دول تحميمهم وتشجعهم على باطلهم، وكان المغرب الإسلامي ميدانا لظهور البدع فيه، حيث انتقلت إليه من المشرق عبر دعاة الذين هربوا من تضيق الخلفاء وتعقبهم، فاندسوا في البربر ونشروا باطلهم وأقاموا دولتهم.

يقول المقرئزي: " أصل كل بدعة في الدين، البعد عن كلام السلف والانحراف عن اعتقاد الصدر الأول، حتى بالغ القدري في القدر فجعل العبد خالقا لأفعاله، وبالغ الجبري في مقابلته فسلب عنه الفعل والاختيار، وبالغ المعطل في التنزيه فسلب عن الله تعالى صفات الجمال والنوع الكمال، وبالغ المشبه في مقابلته فجعله كواحد مثل الشر، وبالغ المرجئ في سلب العقاب، وبالغ المعتزلي في التخليد في العذاب، وبالغ الناصبي في دفع علي عن الإمامة، وبالغت الغلاة حتى جعلوه إلهًا".

5. أسباب وعوامل ظهور الفرق والحركات المذهبية:

ظهرت الفرق والمذاهب الإسلامية نتيجة عوامل سياسية وعقدية متشابكة بدأت بفتنة مقتل الخليفة عثمان بن عفان، ثم الصراع على الإمامة، وتأثرت بالاحتكاك الثقافي بالأمم المفتوحة (الفرس والروم). أدى ذلك إلى ظهور فرق مثل الشيعة والخوارج، وتطور المدارس الفقهية والكلامية بسبب تأويل النصوص والتعصب، والجهل، والغلو في الدين. تتنوع عوامل وأسباب ظهور الفرق والمذاهب الإسلامية وتتداخل، ويمكن إجمالها فيما يلي:

- الأسباب السياسية (الفتن):

تعد النزاعات حول الخلافة (الإمامة) بعد مقتل عثمان بن عفان والفتنة بين علي ومعاوية -رضي الله عنهما- السبب الرئيسي الأول، حيث انقسم المسلمون إثرها إلى شيعة، وخوارج، ومرجئة.

- تأويل النصوص الشرعية:

اختلف الفرق في فهم وتفسير الآيات القرآنية والأحاديث، خاصة المتشابه منها، مما أدى لظهور فرق عقدية كالمعتزلة والأشعرية والجهمية.

- العوامل الخارجية والاحتكاك الثقافي:

بعد اتساع الفتوحات، دخلت أُمم مختلفة في الإسلام حاملة معها أفكارها الفلسفية القديمة (الفارسية، واليونانية، والرومانية)، مما أثر في طريقة التفكير العقدي.

- التعصب والمذهبية:

التعصب لآراء الرجال أو المذاهب، وتقديم الرأي على النص، أو التقليد الأعمى، ساهم في ترسيخ الاختلاف وتحوله إلى فِرَق.

- الغلو في الدين:

التنطع والتشدد، أو الغلو في تعظيم بعض الشخصيات ورفعهم فوق منزلتهم، كان سبباً في ظهور فرق غالية.

- الجهل بنصوص الكتاب والسنة:

البعد عن المنهج الصحيح وتلقي العلوم من غير الراسخين في العلم.